أدب المهجر الشرقي

عرض ودراسة
أ.د. عبدالرحيم الكردي
جامعة قناة السويس

-١-

"أدب المهجر الشرقي" من الكتب النادرة في موضوعها، فهو لا يتناول الموضوع التقليدي عن النتاج الأدبي لقرائح الشعراء والكتاب العرب المهاجرين إلى الأمريكيتين، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، بل يتناول مؤلفه الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيّع مهجراً آخر يقع في الناحية الأخرى من العالم، إنه يتناول الأعمال الأدبية للمهاجرين العرب نحو الشرق نحو إندونيسيا وسنغافورة، ويطلق على هذا الأدب – لأول مرة – مصطلح "أدب المهجر الشرقي" تمييزاً له عن أدب المهاجر الأمريكية، فهو صاحب الريادة في الموضوع، كما أنه صاحب المصطلح.

-٢-

والكتاب متوسط الحجم، يقع في (١٥٨) صفحة من القطع المتوسط، وهو أحد منشورات مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة لسنة ١٩٩٩م، ويحتوي على مقدمة، وثلاثة فصول، وثبت بالحواشي، وآخر بالمصادر والمراجع، بالإضافة إلى التصدير الطيب الذي استهل به المركز هذا الكتاب، بقلم الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن، مدير المركز.

في المقدمة يتحدث الدكتور الربيّع عن السبب في تأليفه للكتاب، فيذكر أن القصة تكمن في تساؤل كان يدور في ذهنه حول وجود مهاجر أخرى للعرب غير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمريكتين ، وقد عثر على الإجابة عن ذلك عندما أراد الله له أن يطلع على هذا الأدب عندما أتيحت له زيارة إندونيسيا فكتب عن هذا الأدب ثم تحولت المقالة كتاباً .

وفي الفصل الأول من الكتاب يتحدث عن الصحافة العربية في إندونيسيا وسنغافورة ، فيعرِّف بست عشرة صحيفة عربية كانت تصدر في إندونيسيا ثم توقفت ، وأربع عشرة صحيفة كانت تصدر في سنغافورة ، ثم يفصل القول في صحيفتين بوصفهما نموذجاً ، إحداهما وهي " النهضة الحضرمية " وكانت تصدر في سنغافورة ، وثانيتهما " الكويت والعراقي " وكانت تصدر في إندونيسيا ، ويشغل في كل منهما بالموضوعات التي كانت موضع اهتمام هاتين الصحيفتين وهي الشعر ، والمقالة الأدبية ، والقصة . وينتقي مجموعة من الأشعار الجيدة التي كانت تنشر فيهما ، ويناقش عدداً من الموضوعات التي كانت تشغل كتابهما .

وفي الفصل الثاني يتحدث عن الاتجاهات الموضوعية في هذا الأدب ، ويحصرها في أربعة موضوعات ، هي :

١ — الغربة والحنين إلى الوطن الأم .

٢ — الإصلاح الديني والاجتماعي .

٣ — وصف الطبيعة .

٤ — الصراع الطائفي .

ويؤيد شرحه لكل موضوع من هذه الموضوعات الأربعة بطائفة مختارة من الشواهد الشعرية .

أما الفصل الثالث والأخير فيفرده لأربعة من أدباء هذا المهجر الشرقي ، وهم: عبدالعزيز الرشيد ، وابن شهاب العلوي ، ومحمود شوقي الأيوبي ، وصالح الحامد العلوي ، الأول والثالث كويتيان ، والثاني والرابع يمنيان .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد لا يعلم كثير من الناس — قبل صدور هذا الكتاب — أن هناك مهاجرين نحو الشرق ، على غرار المهاجرين نحو الغرب ، لقلة المعلومات عنهم ، ولضآلة تأثيرهم في البيئة العربية وإذا علم بعض الناس ذلك فقد يغيب عنهم أن منهم شعراء وأدباء نظموا أشعارهم في سنغافورة وإندونيسيا وتغنوا باللسان العربي غناء جميلاً يشبه غناء أبي ماضي أو نعيمة أو جبران أو بدائيه ، وإذا لم يغب عن القلة منهم ذلك فإن الكثيرين ممن ينضوي تحت هذه القلة يحسب أن ما يقرأه من شعر رومانسي رقيق كان يبعث به صالح حامد العلوي من سنغافورة إنما هو شعر رجل مسافر في زورة ربما يعود ، وقد عاد فعلاً، وارتوى من ماء النيل حتى أصبح واحداً من أبنائه، ومثل ذلك ينظر كثير من الناس إلى علي أحمد باكثير .

من ثم فإن القارئ لأدبيهما لا يحس بأنه ينتمي إلى بيئة غريبة ، كما هو الحال بالنسبة لأدب المهجر الغربي ، ولا يلمح عندهما غير ما عند علي محمود طه أو ناجي أو أبي شادي أو محمد عبدالحليم عبدالله ، ولا أدري السر في ذلك، هل يكمن في أن البيئة التي هاجروا إليها تحمل روحاً شرقية لا تختلف كثيراً عن الروح الشرقية في البيئات العربية ؟ فلم تحمل أشعارهم شيئاً غريباً . هل يكمن السر في أنهم هاجروا إلى بيئات غير حضارية فلم يجدوا فيها فكراً أو نظريات يبشرون بها في وطنهم الأم؟ هل يكمن في أنهم كانوا متأثريـــن بالاتجاهات الأدبية والفكرية في الوطن الأم لا مؤثرين فيهـــا؟

أياً كان الأمر فإن الحضارة كانت ساطعة نحو الغرب فأظهرت خفية ، وكبرت صغيرة ، وجلت مرآة الناظرين إلى أبنائه أو المهاجرين إليه ، في الوقت الذي خبا فيه ضوؤها في الشرق ، فأغشيت أعين الناظرين إليه وقل المهتمون بأبنائه أو المهاجرين إليه ، من ثم فإن كتباً كثيرة ألفت عن الأدب المهجري في العالم الجديد ، في الوقت الذي خلت المكتبة العربية من كتاب يتخذ من أدب المهاجرين للعالم القديم موضوعاً ، حتى جاء هذا الكتاب الذي نعرضه .

جاء هذا الكتاب لا ليسد الفراغ في هذا الجانب – كما يحلو أن يقال – فالموضوع أكبر من أن يحيط به كتاب واحد أو باحث واحد ولكن جاء ليعرف بهذا الأدب وليلفت الأنظار إلى هذه البيئة التي كانت مجهولة ، والمؤلف يدرك ذلك ويعي دوره ويعرف حدود مهمته الصعبة ، وهي مهمة الاستكشاف والتعريف وليست مهمة البحث والدراسة واستنباط الاتجاهات الفنية أو المضمونية ، يقول في ص : ٧٣ :" من الصعب تقديم دراسة تحليلية مفصّلة عن أدب المهجر الشرقي في هذا البحث، ولذلك اكتفيت بالتعريف والشرح لبعض الظواهر الواضحة فيه ، ثم يقول : " وفي يقيني أن الدراسات التفصيلية للاتجاهات الموضوعية والفنية لهذا الأدب تحتاج إلى مجهود وافر في جمع مادة هذا الأدب أولاً ، ثم تصنيفها ودراستها ، وقد حاولت شيئاً من ذلك في الكتاب المفصّل عن هذا الأدب الذي أرجو أن يصدر قريباً "..

وقد كان من لوازم هذا الهدف المحدد للكتاب أن تخفف صاحبه من لوازم البحث وقيوده ، واستعمل الرخص المباحة في مجال التأليف الاستكشافي للكتب وتلك الرخص المحظورة في مجال البحث من ذلك مثلاً أن الكاتب أطلق العنوان العام للكتاب بينما حدّد المجال المدروس فيه ، فعنوان الكتاب يشمل أدب المهجر الشرقي كله ولم يتناول الكتاب سوى بيئتين منه فقط هما إندونيسيا وسنغافورة في الثلث الأول من القرن العشرين فحسب ، وعنوان الفصل الثاني يشمل الاتجاهات الموضوعية والفنية في هاتين البيئتين بينما اكتفى المؤلف بالاتجاهات الموضوعية فحسب ولم يتحدث عن الاتجاهات الفنية ، ومثل استطراد الكاتب إلى قضايا غير أدبية لأهميتها التاريخية أو القومية ، رغم أن طرفاً منها بعيدة عن أرض المهجر الشرقي ، ومثل تكرار الشواهد الشعرية رغم أن الإشارة إليها تكفي عن الإعادة وغير ذلك من الأمور الجائزة في مثل هذه الكتب التي ترتاد موضوعات جديدة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتستكشف بيئات غير مطروقة . لكنها غير جائزة في مجال الدراسات التحليلية والفنية والتي يأتي دورها تالياً لمرحلة الريادة والاستكشاف هذه .

لكن السؤال الذي يتردد على الذهن عند الحديث عن تأخر الاهتمام بهذا الأدب حتى أواخر القرن العشرين هو : هل حقيقة لم يتنبه رواد النهضة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن إلى هذا الأدب في الوقت الذي تنبهوا فيه للأدب المهاجر نحو الغرب هل كان العقاد والمازني وأبو شادي وهيكل وطه حسين . في غفلة عن نتاج أمثال العلوي أو ابن شهاب العلوي أو شوقي الأيوبي ؟ أم أنهم أغفلوه ؟ إن الواقع التاريخي يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن كثيراً من أدباء هذا المهجر كانوا معروفين بل كانوا على صلة وطيدة برواد هذه النهضة في ثلاثينيات القرن العشرين . والدليل على ذلك أن بعضاً منهم كان ينشر إنتاجه في الصحف المصرية مثل أبولو والرسالة ، وكانت بينهم كتابات . لم يكن أدباء هذه المهاجر المشرقية غائبين إذن عن وعي هؤلاء الرواد ، لماذا إذن لم يولوهم العناية التي أولوها للأدب المهجري في الجانب الغربي ؟

إن من يتتبع تطور الحركة الثقافية العربية في القرن العشرين يلاحظ أن نتاج هؤلاء الشعراء جاء في فترة كان الشعراء والمفكرون العرب مشغوفين بالبحث عن الجديد والثورة على المألوف ، وكان مفهوم التجديد في أذهان الكثير منهم قريباً جداً من مفهوم التغريب، ومن ثم فإن ما كان يكتبه جبران أو أبو ماضي من أشعار إنما في نظر هؤلاء الرواد قبساً من وردزورث وشيلي وبيرون وكيتس من النماذج التي بهرت الأدباء العرب في ذلك الحين بأخيلتها وفلسفتها وتأملاتها العميقة وروحها الحضارية الوثابة . كانت هذه جهة الثقافة العربية في ثلاثينيات القرن العشرين .

وفي مثل هذه الحال فإن الأدباء المهاجرين نحو المشرق لن يكون في وسعهم أن يقدموا جديداً من هذا الطراز الذي يطلبه هذا الجيل إلا النذر الذي يتسابقون فيه

مع أدباء مصر أو الشام أو العراق في الاطلاع على الآداب الغربية أو اقتفاء آثار الأدباء العرب أنفسهم في البيئات العربية التي سبقت إلى الاتصال بالأدب الغربي .

فلم تكن البلاد الأسيوية التي هاجروا إليها أكثر ثقافة أو أرفع حضارة من بلادهم التي هاجروا منها ، بخلاف المهاجرين نحو الغرب، ولم يكن في بلاد سنغافورة أو أندونيسيا حركات فنية أو فكرية تجعلهم يضيفون من خلال الاطلاع عليها إلى الأدب العربي جديداً ، الشيء الوحيد الذي تميز به أدب هؤلاء المهاجرين نحو الشرق أنه كان أكثر تعبيراً وصدقاً عن العروبة والإسلام ، وأكثر اعتداداً بالذات الإسلامية العربية .

لكن الفكر العربي في الربع الأخير من القرن العشرين تطورت اهتماماته بل تغيرت مقاصده ، فأصبحت قضية الهوية الثقافية في الفكر والأدب بديلاً لقضية التجديد والتحديث التي كانت الأهم والأولى عند جيل الرواد . نتيجة لذلك تعاظم الاهتمام بالنتاج الأدبي الأكثر صدقاً في التعبير عن الهوية العربية والإسلامية ، وأصبح التجديد ينظر إليه بعين الريبة ؛ لأنه شبيب بسموم التغريب وتذويب الهوية ، وانجلت غاشية ما كان يدعى رجعية في الفكر والثقافة تحت مصطلح جديد جذاب هو الأصالة ، فأعيد النظر في مفاهيم عديدة ، واكتشف جوانب كانت عن أعين الأجيال الماضية غائبة .

ولما كان أدب المهاجرين العرب إلى هذه البقاع الشرقية أدب جهاد ودعوة منذ القدم ، وأكثر تعبيراً وصدقاً عن الهوية القومية فإن العمل على إحيائه أصبح جزءاً من هذه الحركة الفكرية الجديدة ، التي تختلف عن الحركة الفكرية التي كانت في النصف الأول من القرن العشرين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يكن الأمر إذاً اختلاف جهة المهاجرة شرقاً وغرباً فحسب ، ولم يكن اختلافاً في الموطن المهاجر منه ، الشام أو حضرموت ، بل الأمر اختلاف توجهات ثقافة لدى المثقفين العرب في طورين مختلفين من أطوار العقل العربي .

يبدو ذلك واضحاً في النتاج المعرفي لكلا الطورين ، وفي اهتمامات كل منهما بجانب خاص من جوانب الأدب ، وفي منهج كل منهما في البحث ، وفي العناصر المهمة والعناصر غير المهمة في التجارب الشعرية ، بل في كل شيء .

اهتمام الدكتور محمد الربيّع بهذا الأدب وكشف النقاب عنه – إذا – ليس مجرد صدفة أوحت بها سفرة واحدة إلى أندونيسيا، بل هو اتجاه وتيار ثقافي عشر عمل لنموذج من نماذجه فأنجح مكامنه ، أو هو جزء من إستراتيجية ثقافية لجيل من أجيال العرب في الربع الأخير من القرن العشرين . وبعد فإن كتاب " أدب المهجر الشرقي " جديد بعنوانه ، جديد في موضوعه غني بمصادره ومراجعه " تلك المراجع والمصادر عسيرة المنال ، إلا على أمثال مؤلف الكتاب ممن عرفوا بالدأب في طلب العلم " طريف بنماذجه الشعرية وهو لا غنى عنه لكل من أراد أن يبحر في مجاله الخصب أو لكل باحث عن المعرفة أينما كانت منابعها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com